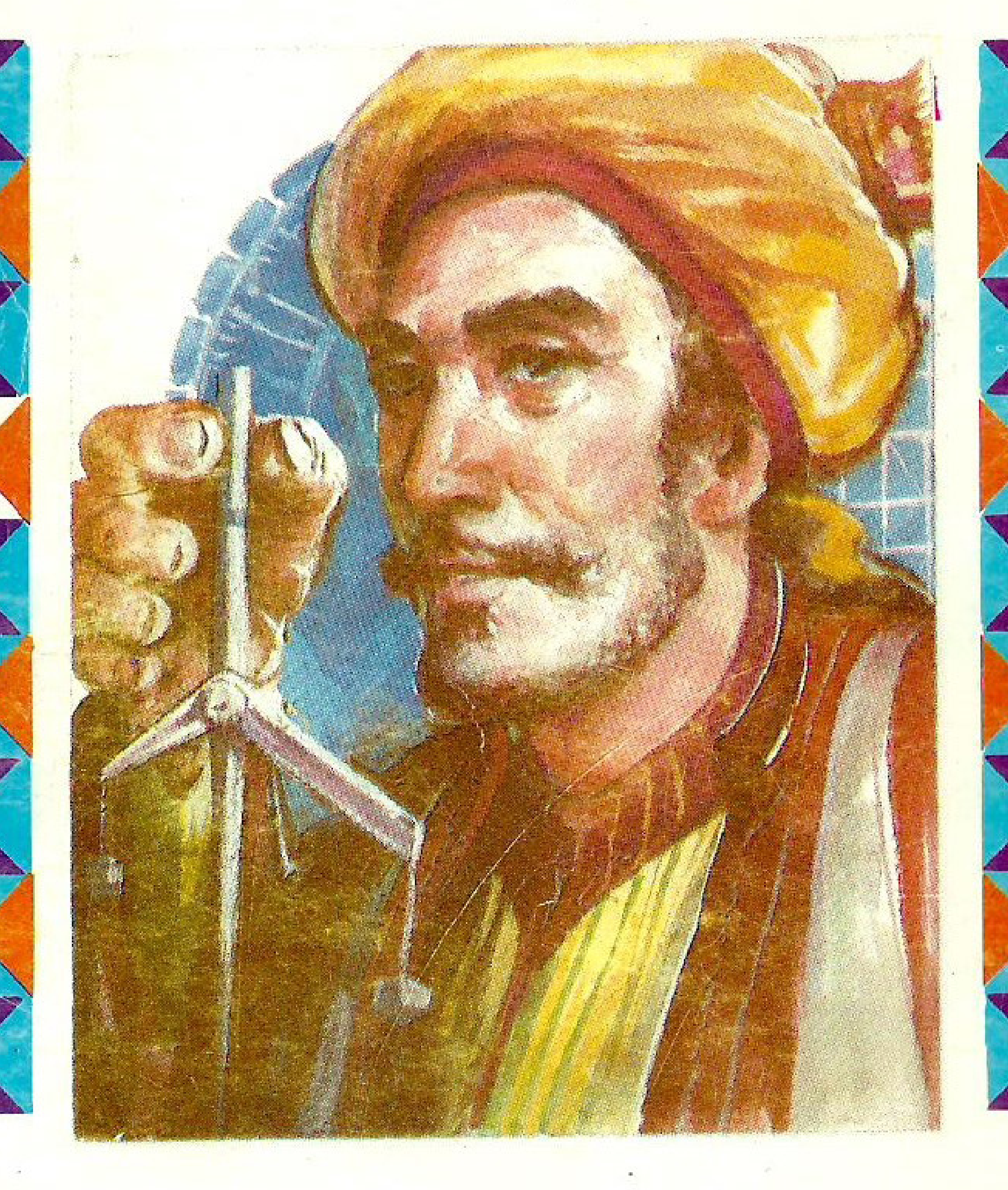
علماء العرب

١٦

الخازن

عالم الطبيعة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء العرب

الخازن

عالم الطبيعة



سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يو ان



صبىّ فى مكتبة

فتَح « عبدُ الرحمن » أبوابَ مكتبةِ قصرِ السلطان « مِلكْشَاه » السَّلْجُوقى ، وهو يُحَيِّى من حولَها من الحرّاس . وسارَع بفتْحِ نوافذِ المكتبةِ ، حوْلَ مناضِدِ القراءة ، وأرْكانِها الوثِيرة .

وكان « عبدُ الرحمن » أولَ الجالسين ، ليقرأَ فى كتابٍ مفتوح ، عندَ صفحَةٍ بعيْنها ، كانَ قد توقّف عندَها بالأمْس .

ومضَت بُرْهة أقبلَ بعدَها « على المَرْوَزِىّ » خازنُ مكتبةِ قصرِ السلطانِ ، فى مدينةِ « مَرْو » عاصمة الدولة السلجوقية آنذاك . ولم يشعُر عبدُ الرحمنِ بقدومِه إلا وهو يجلسِ بجانبِه ، ويقولُ له :

– أرِنى ما تقرؤُه يا عبدَ الرحْمن .

ونظَر « علىّ » إلى عُنْوانِ الكتابِ ، وقال بدهشَة :

– ما هَذا ؟ كتابُ الطبيعةِ لأرِسْطُو ؟ أَوَ أنتَ فى هذِه السّنِّ يا بنى تقرأُ « أَرِسْطو » ؟

فقال « عبدُ الرحمن » :

– نعم يا سيّدى . فأنا أحِبُّ القراءَةَ ، فى كلِّ ما يُكتبُ فى الطبيعيّاتِ والرّياضِيّاتِ ، والمنطقِ ، والفلسفةِ ، والفلَكِ . ولا أجِدُ فى قراءَتِها وفهمِها مُشكلةً ما ، عدَا بعضِ المصْطَلَحاتِ ، فلغتُها العربيّةُ جيِّدةٌ وواضِحةٌ ، وسهْلةُ الفهْم . لُغَةُ العِلْمِ يا سيدِى .

فرَبّت « علِىّ » الخازن على كتفِ « عبدِ الرحمن » قائلاً :

– بُورِكَ فيكَ للعِلمِ يا بُنىّ . لم أُخطِئْ حينَ جئتُ بكَ إلى هذَا المكانِ ، لِتُعِينَنِى فى تَدْبيرِه . فى هذَا المكانِ يا بُنَىّ يتفتّحُ عقلُكَ للعِلْم ، وتصيرُ عاشِقًا للقراءَة .

ورأى « عبدُ الرحمن » زائرَيْن شابَّيْن قادِمَيْن للمكتبةِ . فنهَض معتذِرًا لعلِىّ ، كىْ يُلَبِّى طلبَاتِ هذَيْن الزّائرِيْن من الكُتُب . وجلَس الزائِرَان ، وتوجَّه « علىّ » إلى مكتبِه بغرفَةٍ مجاوِرَة ، كخازنٍ للمكتبةِ ، وأمِينٍ لها . وكان مكتَبُه موضوعًا فى الغُرْفَة ، بحيْثُ يَرَى كلَّ شىءٍ ، فِى قاعَةِ المُطَالعةِ الكُبْرى .

مدينــة للسعــادة

اعتادَ « عبدُ الرحمن » أن يتجوّل فى أنحاءِ مدينةِ « مَرْو » (تقع فى جمهورية تركمان السوفيتية الآن) مع الصّباحِ الباكِرِ من كلِّ يوم ، قبلَ أن يذهَبَ ليفتَح أبوابَ مكتبةِ قصرِ السُّلطان . يَرى المدينَةَ قُبيْلَ شُرُوقِ الشّمسِ ، وهى تتنفَّسُ بالحركَةِ والمارّةِ وأنفاسِ الصباح ، وينتهِى به المسيرُ إلى رَبْوَة



يصْعَد فوقَها ، ويملأُ صدرَه بالهواء النقِى ، ويُسرِّح بصرَه متأمّلاً فى صحراءِ « كَارَكُوم » ، وسمائِها الرّمادِيّة . كانتِ السماءُ تتناثَر فيها دائماً سحُبٌ عابِرةٌ ، حتّى فى عزِّ الصيف .

كانت مدينةُ « مرْو » ، آنَذاك ، مركزاً هَامًّا من مَراكزِ الثّقافة الإسلاميّة ، فى أواخرِ القرنِ الميلادِىّ الحادِى عشَر ، شأنُها فى ذلِكَ شأْنُ مَدائِنَ : بُخارَى ، وبغدادِ ، ودِمشق ، والقاهِرةِ ، ومراكِش ، وقُرطبة ، والرّى ، وأصْفَهان ، وشِيراز ، وسِوَاها من المدائِنِ الإِسْلامِيةِ الكُبرى ، فى العُصُور الوُسْطى .

وكانت مدينةُ « مَرْو » واحَةً كبيرةً فى صحراءَ « كَارَكُوم » ، واحةً عامرةً بالقُصُور والمساجِدِ ، وحوانيتِ الورّاقِين ، والأسواقِ الغنِيّةِ بمُنتجاتِ الشرْقِ والغرْب ، والشمالِ والجنوب ، والمكتَبَاتِ العامّةِ فى قُصُورِ الأمراءَ ، والخاصّة فى بيُوتِ العُلَماءِ والتجارِ ، وفِراء حيوان السِّمّوْر (حيوان مثل الثعلب له فراء كثيف فاخر) المجلُوب من أقْصَى الشمَالِ ، حيثُ الجلِيدُ الدائمُ ، والنهارُ الذى يدُوم ستّةَ أشهُرٍ فى العام . والذى لا تغرُب شمسُه سوَى بضْعِ دقائِقَ فى كل يوم ، وحيثُ اللّيْل

الذى يدومُ الشهور الباقية من العام ، والذى لا تُشرِق شمسُه سوَى بضعِ دقائِق فى كلِّ يوم .

وحدَّث « عبدُ الرحمنِ » نفسَه مُناجيا مدِينَة « مَرْو » : إيه يا مَرْو ، يا مدِينةً ولِيدَة للسّعادَةِ . اسمُكَ الآن « مَرْو » ، وفى الزّمن القدِيم ، فى ظلِّ أكاسِرَة الفُرس ، كان اسمُكِ « مَرْجِيَانا » كنْتِ آنئِذٍ عاصِمةً لمقاطعَةٍ من مُقَاطعاتِ الشمالِ الفارِسيّة . وها أنتِ الآنَ عاصِمة لدولَةٍ ولِيدَةٍ ، وفتية . وغداً ، لا أحَدَ يعرِفُ ماذا سيكون اسمُك ، ولا كيْفَ تتقلّبُ بكِ الأَحْوال ، فى زَمَانِ هذِه الدّنيا .

ولمْ يجِدْ « عبدُ الرحمن » جواباً لسُؤَاله ونَجْواه ، ولم يعرِفْ أبداً أنّهُ ، بعْدَ تِسعةِ قُرُون ، ستصِيرُ « مَرْو » أطلالاً ، وأنّه ستَنْشأُ ، بالقُربِ منها مدينةٌ جدِيدة ، اسمُها « بيرَام على » ، وتكونُ ، مثلها ، مركزاً لصناعَةِ النسيج .

وانحدر « عبدُ الرحمن » من الربْوَة ، متّجها إلى مكتبةِ قصرِ السّلطان ، ليفتحَ أبوابَها من جدِيد ، ومشَى سعيداً بلحظتِه ، مُنتعِشَ الرّوح ، على شاطِىءِ نهرِ « مَرْجَب » ، وقد

أَطَلّتْ عليهِ حدائقُ القُصُور ، ومآذِنُ المساجِد ، وصَدَحتْ بيْنَ أغصانِ الأشجَارِ أصواتُ الطيُورِ ، وأنّاتُ النّواعِير (السواقى) ، ولاحَتْ فى البعدِ أبراجُ القِلَاع والحُصُون والأَسْوَار ، وشاعَت فى كلِّ مكان ، ألوانُ الزّهُور ، وفاحَتْ روائحُ الورُود .

طالب عِلْمٍ

وعندَ عصرِ ذلك اليومِ ، دعا « علِى المَرْوَزِىّ » الخازن ، « عبدَ الرحمن » إليه ، فى غُرفةِ مكتبِه ، وقال له :

– أترغبُ يا عبدَ الرحمن فى التّفرُّغِ لطَلَبِ العلم ؟

فقالَ له « عبدُ الرحمن » بلهفَة :

– نعم يا سيدى .

فقال له « على » :

– فكّرْتُ يا « عبدَ الرحمن » فى إعْفائِكَ من عملِك . وسوفَ نجِدُ غيرَك ، مِمَّن لا هِمّة لهُ ولا طُموح ، للعملِ فى هذه المكتبة .

فقال له « عبدُ الرحمن » بامْتِنَان :

– سأظَلّ شاكِراً لكَ هذا المعرُوف يا سيّدِى ، طَوال عُمْرِى كلّه . لكنْ ، كيفَ أُدبّر نَفقَاتِ معيشَتِى ، وأنا بدونِ عمل ؟

فقال له « علِىّ » ضاحِكا :

– يا عبْدَ الرحمن ، مالُ الدوْلة يتسِعُ لعشَرات العلماء ، وآلافِ الطُّلاب ، ولَسوْف يتسعُ لك هذا المال ، وأنْتَ طالِبُ عِلم ، وغداً ستكُونُ عالِماً كبيراً بعوْنِ الله ، وتنالُ راتِباً كبيراً ، مِثْلَ رواتِبِ العلماءِ .

وسكَتَ « علِىّ » لحظَة ، ثم قال :

– كم عمرُك الآن يا عبدَ الرحمن ؟

فقال « عبدُ الرحمن » :

– أوشِك أنْ أُتِمّ يا سيّدى خمسةَ عشرَ عاما .

فقال له « علِى » :

– ما تزالُ صغِيراً يا بُنَىّ ، عن الاستقلال بنفسك فى

بَيْت . وأنت بحاجَةٍ إلى التوجيه والرعَاية ، ولذلِكَ ستظَلّ مُقِيماً معِى ، فى غرفَتِك بمُلحقَاتِ قَصْرِى ، كَىْ تُوَفِّرَ راتِبَك كطالِبِ عِلْم ، لِثيَابِك وكُتُبِك ، ولا تتكلّفُ مَعَنَا أَيّةَ نَفقَاتٍ أُخرَى . أَيُرضِيكَ ذلِكَ يا عبدَ الرحمن ؟

فاغْرَوْرَقَتْ عَيْنا « عبدِ الرحمن » بالدّمُوع ، وتأثّر تأثُّراً شدِيدا ، وقالَ بصوْتٍ متهدِّج :

– نعم . نَعَم يا سيّدى .

البـــديل

ذاتَ صباحٍ ، قَدِم « علِى المَرْوَزِىّ الخازِن » إلى المكتبةِ ، مُصْطَحِبا معهُ فتًى شاباً ، يجاوِزُ العشرِينَ من العُمر ، وقَدّم « علِى » الشّابَّ لعبدِ الرحمن ، وقالَ له :

– هذا هو بدِيلك فى هذِه المكتَبَةِ ، فعلّمه ما علمتُك إيّاه عن هذه المكتبة ودَرِّبْه على التعامُلِ مع ما فِيها من الكُتُب ، ومعَ زائرِى هذِه المكتبةِ من القُرّاءِ والمستعيرِين ، ومع رُسُل السّلطان

الذين يطلبون نُسْخةً مِن الوثائقِ والرّسَائل الخاصّةِ بالدوْلةِ .

وصحِبَ « عبدُ الرحمن » بدِيله الفَتى الشّابَّ ، وقالَ له :

– هذِه الوظيفةُ يا أخِى ، العملُ فِيها رَتيب ، لكنّه بحاجةٍ إلى ذكاءٍ وفِطنَة ، فى تنظِيمِ الكُتُب والوَثائِق والرسَائل ، وتصنِيفِها وسحْبِها من أماكنِها ، وإعادتِها إلى مواضِعِها ، وتدوِينِها بالدّفاتر الخاصّةِ بها .

وأخذ « عبدُ الرحمن » يتجوّلُ بالفَتى الشابّ بين قاعَات المكتبةِ ، وغرَفِ تخزِينِها ، ويشرَحُ له كلَّ ما يرَاه . ثم توقّفَ به عندَ قاعَتَى وَثائِقِ الدولة ، الداخليةِ والخارجيةِ ، وكانت تضمّ أصُولَ الرسَائِلِ والوَثائِقِ الوارِدَةِ لمكتبةِ قصرِ السلطانِ فى « مَرْو » . وقالَ له :

– هذِه الرسائِلُ والوثائِقُ موضوعَة ، كما ترَى ، فى أضابِيرَ (دوسِيهات) ، كل إضْبَارَةٍ خاصّةٍ بنوْعٍ من الوثائِقِ أو الرسَائِل ، فى شهْرٍ بعينِه ، فى سنَةٍ بعْينِها . فزِمَام الدّيوَان بأسْرِه ، فى يَدِ سيِّدِى « علىّ المرْوزىّ الخازن » . وأنتَ يا صاحِبِى ، ستكونُ أمِيناً على هذا الزّمَام ، وتَحتَ رِئاسةِ الخَازِن .



وتوقّف به « عبدُ الرحمن » عندَ قاعةٍ خاصّةٍ بالنسّاخِين فى المكتبة ، قائِلاً له :

– لا تُخْرِجْ رسَالةً ولا وثِيقةً إلا بأمرٍ من خازنِ المكتبةِ ممهورٍ بتوقِيعِه ، ولا تُسلِّمْ لأحدٍ أُصُولَ رسائِلَ أو وثَائِق ، وإنما تُسلِّم له صورَةً منها ، ينسخُها لكَ النَّسَّاخُون ، هنا ، فى هذِه القاعَة ، ثم يوقِّعها خازِنُ المكتبَةَ ، ويؤرّخُها ، كصُورةٍ مطابقَةٍ للأصْل .

بين المكتبة والقصر

وأقام « عبدُ الرحمن » مُلازِما المكتبةَ ، إلى أن اطمأنّ قلبُه إلى حُسْن تدرِيبِه للفَتى الشّابّ ، فى عملِه الجدِيد ، بمكتبةِ القصْرِ السّلطانى .

وظلّ « عبدُ الرحمن » يتردّد على المكتبة ، كقارىءٍ وطالِبِ عِلْم ، يظلّ قابعاً فِيها مُعْظَمَ نهارِه ، يقرَأُ ويُدوِّن مُلاحظَاتِه على ما قَرأه ، ومُلخّصاتِه لما قَرأه ، فى دفاتِرِه الخاصّة ، ولا يكادُ يُغادِرُ قاعَةَ المطالعَةِ ، إلا للصّلاةِ فى مسجدِ القصر ، أو التّرويحِ عن نفْسِه ، فى حدِيقَةِ القصر ، أو تناولُ وجبةٍ سريعَةٍ فى مطبخِ القَصْر . ثم يعُود إلى غرفتِه الخاصة ، بين الغُرفِ الملحقَةِ بقصْرِ « علِيٍّ المروَزِىّ الخازن » ، ويظلّ ساهِراً مع كتابٍ استعارَه من المكتبَة ، يقرأُ فيه ساعَاتٍ من الليل . وحين يمَلُّ مجلِسه ، يغادِر غرفتَه ، ويتمشّى فى حديقةِ هذا القصْر ، يشاهِدُ نوافيرَها ، ويسمَعُ أصواتَ الليل ، ويرنُو إلى نجُومِ السّماء ، إذا صفَا الليلُ من السُّحُبِ .

ابن الأسـير

حتى ذلك الحين ، كانَ « عبدُ الرحمن » ، لا يزال ابناً لأسير رُومِىٍّ ، كانَ قد أُسِرَ فى حَرْب السلطان « طُغرُل بك » السلْجُوقى ، للبيزَنْطِيِّين من الرّومَان ، فى آسْيا الصُّغرى (تُركِيا الآن) ، ولم يتقدّم الرّومَان البيزنْطيّين لفدائِه مع سِوَاه من الأَسْرى . فاختَارَ الأبُ الأسِيرُ البقاءَ بينَ المسلِمين ، واعتنَقَ الدينَ الإسلامى ، وتسمّى باسْمِ « المنصُور » وعاشَ فى رِعَايَةِ أسرَةِ « علِىّ المروَزِىّ الخازِن » ، وتزوّج وأنجبَ ولداً ، أسْمَاه : « عبدُ الرحمن » ، وتُوُفِّى « المنصُور » ، و « عبدُ الرحمن » ما يزالُ صغِيرَ السن ، ولحِقتْ به أمُّ « عبدِ الرحمن » بعدَ شُهُور ، فشَبّ « عبدُ الرحمنِ » يتيماً بيْنَ أهلِ « علِىّ المرْوزِىّ الخازن » ، يكفلُونه ويرعَوْنه ، ويخفِّفُون عنه مشاعِرَ اليُتْم ، بالوُدِّ والمحبّةِ والحنَان .

ثمن الحـرية

وفى إحدَى ليالِى الشّتاء ، كان « عبدُ الرحمن » جالساً فى

غرفَتِه بالقصْر ، يقرَأُ فى كتاب ، حين سمِعَ طرْقاً على البَاب ، فأذِنَ للطّارِق بالدخُول ، وفوجِىءَ « عبدُ الرحمن » حينَ رأى سيدَه وراعِيَه يدخُلُ مُحيِّياً ، ويجلِس إليْه ، ويقُول :

– آن لكَ يا عبدَ الرحمن أن تتلَقّى دُرُوسا فى الفلسَفَةِ والعُلُوم ، تناسِبُ مواهِبَك يا بُنَىّ . ومن الغدِ ، سأصْحَبُك معِى فى كل ليْلةٍ إلى مجالِسِ العلماء فى القصْرِ السُّلطانِىّ ، وفى بيوتِ العلماء ، وحَلْقاتِ المساجِدِ ، ولسوْف تَلْقَى مَعِى عَشَرات من العُلماءِ والكتّاب ، والعارِفِينَ باللّغات ، تسألُهم وتستمِع إليهم ، وتتعلّم على أيدِيهم وتصِيرُ لهُمْ صديقا ، فإنى أحِبُّ يا بُنَىّ أن تستقِلّ بأمرِك فى حيَاتِك المقبلة . فأنَا اليومَ حَىّ ، وفى غدٍ مَا ، سأكُون فى رِحَابِ الله .

فقال « عبدُ الرحمن » من قلْبِه :

– أطالَ اللهُ عمرَك يا سيِّدِى .

وتنهّد « علِىّ » وقال :

– قرّرت يا عبدَ الرحمن ، أن تكُونَ من الساعَةِ حُراً ، مِثلك مِثل كلِّ مسلمٍ حُرّ ، لا يملِكُ رقَبَتك أحدٌ من الخَلْق

سِوَى خالِقِك . وحُبُّك للعِلم يا عبدَ الرحمن هو ثَمَنُ هذِه الحرية . فعِشْ حَيَاتَك حُرّا ، فأنتَ جديرٌ بالحرّية ، وهِىَ جدِيرَةٌ بك .

خـازن المعـارف

وشهِدَتْ مجالِسُ العِلم فى « مَرْو » ، منذُ ذلِك الحين ، شاباً حَدَثَ السِّنِّ ، رُومانِىّ الأنف ، مُلَوّن العينيْن ، شدِيدَ البَسَاطة فِى مَظهرِه ، متواضِعاً فى سُلُوكه ، يُحسِنُ الاستماعَ للعُلماء ، ويجِيدُ السُّؤَالَ والجَوَاب ، اسمُه « عبدُ الرحمن المنصور » ، ورآه العلماءُ عاشِقاً للعِلم ، مُحِبا للعلماء ، فانفَتَحتْ له قلوبُهم ، وانشَرَحَت صدورُهم ، ولم يَبْخَلُوا عَليْه بما يعرفُونه من العلم .

وتعلّم « عبدُ الرحمن » ، فى السّنواتِ التّالِية ، اللُّغَتيْن : اليُونانِية ، والفَارسية ، مع اللغَةِ العربية ، وتلقى درُوساً نظريّة عديدَةً فى علُومِ عصرِه الدنيوِيّة والعملِيّة ، ودُرُوساً عملِيةً فى مناهِجَ وتجارِبِ عُلوم الفَلَك والطّبيعة . وصَار « عبدُ الرحمن »

طالِبُ العلم ، بعْدَ حين ، عالِماً مُجازاً بيْن عُلَماءِ « مَرْو » يُشارُ إليه بالبَنان ، واشْتُهِر بيْن العلماء بلقَب « الخازنى » ، نسبَةً إلى لقَبِ سيّده « علىّ » ، يُنادُونَه به فى حُضُورِه ، ويذكرُونه بِهِ فى غيابِه ، ويقُولُون عنْه : إنه حقًّا « خازِنٌ » للمعارِف ، فى علومِ الدنيا ، من فَلَك ورَياضِيّات ، وفلسَفةٍ وطبيعيّات .

صديق الوالى

وفى إحدَى الليالِى ، فى أَحَدِ مجالِس العلم ، بقصْرِ السلطان ، رآه والِى خُراسان « مُعِزّ الدِّين أَبا حارِث سَنْجَر » ، ابنُ السلطانِ السلجُوقِىّ « مَلِكْشاه » ، واستَمَع إليه وهُوَ يناظِرُ العلماء بأَدَبٍ جمّ (كثير) ، وتَواضع مُدْهِش ، فقَرّبه « سَنْجرُ » إليْه ، واتّخذَه لهُ صَدِيقا ، من بيْن عُلماءِ « مَرْو » ، وصارَ يصحَبُه مَعَهُ فى أسفارِه فى أرْجاءِ إيران ، وخُراسان ، والعِراق ، ويزهُو بصُحْبَتِه فى كلِّ مَكَان ، ونالَ « عبد الرحمن » الحُظْوَة فى صحبَتِه ، بيْن الأشْراف .

كان « عبدُ الرحمن » قد بلَغَ من العُمر آنذاك ثلاثِينَ سنةً



تقريبا ، فى ختامِ العامِ الأخِير من القرْنِ الهجرِىّ الخامِسِ .
وكان قد استقَلّ بالإقامَةِ فى بيْتٍ خاصٍّ بمدينَةِ « مَرْو » يؤُوب إليْه كُلّما رجَع من أسْفارِه التى يَلْقَى فيها عُلماءَ زمانِه ، ويزورُ راعِيَه الأوّل « علىّ المروزِىّ الخازن » ، فى مكتبَةِ القصرِ السُّلطانِى ، أو فِى قصرِ راعِيه الكبيرِ القَلْب .

بيتى هو عقلى

كانَ « مُعِزّ الدّين سَنْجر » قد صَارَ سلطانا . ودعَا السلطانُ « سَنْجَر » إليه بعبدِ الرحمن وقالَ له :

– يا خازِنِى . علمْتُ أنكَ تُقيمُ بمدينة « مَرْو » ، فى بيتٍ بَسيطٍ متواضعٍ . ولا أَرى مِثلَ هذَا البيتِ يليقُ بعالِم ، وعالِمٍ مُقرّبٍ من السُّلطان ، ومن أشْرافِ الدولة . ولذلك سنأمُر لك بقصْرٍ جديرٍ بكَ كعالِم .

فقال له « عبدُ الرحمن » :

– يا موْلاى . العَالِمُ بعقلِه لا ببَيْتِه . بيتِى الوحِيدُ فى هذِه الدنيا يا مولاى ، هُو عقْلِى . والبيْتُ الذى أسكنُه هو مقرُّ إقامةٍ ، ومكتبةُ قراءةٍ ، وخِدْمتِى فيهِ يسيرة . وحياةُ القصُورِ يا مولاَى كثيرةُ الخَدَمِ والحَشَم ، ولا أحِبّ أنْ أُشْغَل عن العِلمِ بحياةِ القُصُور . ورِفعَةُ المنزِلِ لا ترفَعُ من قدْرِ أحدٍ يا مولاى .

فنظرَ « مُعِزّ الدّينِ سِنْجرَ » ضاحِكا لعبدِ الرحمن ، وقالَ له :

– أنتَ وما تشَاء أيّها العالِمُ المتواضِع . وهكذَا شأنُ العلماء العِظَام . أحبَبْت فقطْ أن أعبّر عن تقدِيرى لك ، وأردْت ألا يقولَ أحدٌ إننى قَصّرت فى حق عالمٍ صدِيق .

عصر الخسائر والمكاسب

عاشَ « عبدُ الرحمن المنصور الخازن » ، فى عصْرٍ بلغَ فيهِ المسلِمونَ الذِّرْوَة فى العِلم والثقافة . واحتكَروا فى هذَا العصْر مجْدَ العِلْم والثّقَافَةِ ، لا ينافِسُهم فيه أحدُ ، فى العَالَمِ كلِّه .

ففى هَذَا العصْر ، فى القرنِ الهجرِىّ الخامِس ، الميلادِىّ الحادِى عَشَر ، ظهرَ علماءُ ومفكّرُونَ عِظَام ، بينَهم كانَ : « ابنُ سينا » ، و « البيرونى » ، و « ابنُ الهيثم » ، و « الفِرْدَوسى » ، والرّحالة « ناصِر خسرو » ، وسِوَاهم من العُلماء السابقِين له ، الذين لمْ يُقدّرْ للخازِن أن يلتقِى بأحدِهم ، لكنّه عرَفَ تراثَهم العِلمىّ كلّه . وبينَهم أيضاً كانَ : « الغَزالِى » و « أبو الحسن الطوسِىّ » ، و « عمَرُ الخَيّام » ، وسِوَاهم ، وهؤُلاءِ التقى بهم « عبدُ الرحمن » ، وصارَ صدِيقاً لهُم .

لكن هذا العصْر نفسَه ، شهد فِتناً واضطراباتٍ ، وحُروبا ضارِيةً ، ففِى طرفَى العَالَمِ الإسلامِىّ ، شنّتِ الأقْوام البدوِيّة غاراتٍ عنيفةً على قلب العالَمِ الإسلامِىّ الذى شاخَتْ دُوَلُه ، شرقاً من التُّرْكِ الغُزّ (السلاجِقة) ، وغَرْباً من الطوارِقِ (المُرابِطين) . لكن هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ دخلُوا فى الإسْلام ، وتمدّنوا وتتحضّرُوا ، وكوّنُوا فى الشّرْقِ دوْلةً فِتيّةً قوِيّةً ، هى : دَوْلة السّلاجِقة ، التى أنْهت صَفْحة الدّوَلِ الغَزْنوِيّة والبُوَيْهيّة والغُورِيّة ، وكوّنُوا فى الغَرْب دولةً قَوِيّة فتيّةً أخرَى هى : دولةُ المَرابِطين ، التى أنْهت بدُورها صَفْحةَ مُلُوكِ الطوائِفِ فى الأندلُس .

فى هذا العصر ، كانتْ قد ضاعَت من المسلِمين ، فى البحرِ المتوسط ، جزائِرُ : مالْطة ، وسردِينيا ، وصقَلية ، وجاءَ المَرابِطون ليكسِبُوا الصحراءَ الكُبْرى وبلادَ « غانَا » فى افريقيا للعالَمِ الإسْلامىّ ، وجاءَ السلاجِقَةُ ليضمُّوا بدورِهم للعالَمِ الإسلامى ، ما وَراءَ القُوقاز فى أواسِطِ آسْيا ، وبلادِ الأناضُول فى آسْيا الصّغْرَى . وكانتِ الحَمَلاتُ الصليبِيّةُ الأولى تبدَأُ ضربَاتِها الأُولى ، على سَواحِلِ الشّام .

وفى هذا العصر ، عاش « عبدُ الرحمن » فترة طفولَتِه وصِبَاه وشَبَابه ، فى ظِلَال دوْلة السَّلاجِقَةِ الفِتيّة ، وفى القَلْب من عواصِمِها الكُبْرى ، فى خُوارَزْم ، وخُراسَان ، وإيْران والعِرَاق .

غدر الصديق

ذاتَ صباح ، قبْلَ عامين ، رُوِّع « عبْدَ الرحمن » بخبَرٍ عن مصْرع صديقِه العالِمِ الرياضِىّ « أبُو الحسَن الطُّوسِىّ » . اغتالَه ، غدراً وغِيلةً ، أحدُ رجالِ جماعَةٍ متطرفَةٍ ، شِيعيّةِ المَذْهَب ، هى جَماعَةُ « الحشّاشِين » التى يتزعَّمها « حسنُ الصَّبّاح » ، والتى كانت تتخذُ من جبَالِ « أَلَمُوت » جنوبىّ « بحرِ قزْوِين » مَقرًّا لَها . وكانَتِ الوسِيلةُ الوحيدَةُ لهذه الجماعَةِ ولزعِيمها ، فى الحوار مع مخالفيه فى المذهب ، هِى : الاغتيال ، وكانَ العالِمُ « أبُو الحسن الطّوسِىّ » ، سُنّى المذهب ، ووَزيرًا أوّل يُلقّبُ بِنظَامِ المُلْك ، فى الدّولَةِ السّلجُوقِيّةِ ، السُّنّيةِ المَذْهَبِ .

وشاعت فى « مرْو » قصّةٌ تروِى صَداقَة الصِّبا والشّبابِ

الأوّل بيْنَ ثلاثةٍ من الشبّان ، هم : « عُمرُ الخيام » ، و « حسَنُ الصَّباح » ، و « أبو الحسَن الطّوسِىّ » ، وكيْفَ أنهُم اتفقُوا علَى أن يُعِينَ أحدُهُم الآخرَ ، حين يُحقِّقُ مطامِحَه فى الدّنيا ، ويصِلُ إلى قِمَّةٍ من قِممِ المجدِ والسُّلْطةِ ، وكيْفَ كانتْ عاقِبَةُ هذه الصّداقَةِ ، هِى قَتْل « حَسَنُ الصبّاحِ » لصدِيقِه القدِيم « أبو الحسن الطّوسى » لاختلافه معه فى المذهب والرأى .

لذلك قُتِل

وعلِم « عبدُ الرحمن » بقُدُوم العَالِمِ الرياضِىّ الشاعِرِ « عُمر الخيامِ » إلى « مَرْو » فسارعَ إلى لقائِه ، بقلْبٍ حَزِين ، ليُوَاسِيَه فى فَقْد صَدِيقِه غدْرا وغِيلَة .

وقالَ له « عُمرُ الخيّام » فى ختَامِ هذا اللّقاء :

– يرحمُ اللهُ صديقَنا الطّوسِىّ ، كان وزيراً للدوْلة ثلاثِين سَنَة ، ولذلِك قُتِل ، وكانَ سُنِّى المذهَبِ ، ولذلك قتل ، وكانَ عقلَ هذِه الدّولةِ ، حقّق لَها فى عَهْد السّلْطانَيْنِ : « ألْبَ أرْسلان » و « ملِكْشَاه » إدارَةً مُنظّمة ، ونهضَةً ثقافيّةً فى علُومِ



الدّين والدّنيا ، ولذلِك قُتِل . وكانَ المُشرِف الأوّل على حَفر التُّرع ، وشَقّ الجُسُور ، وتَعْبيدِ الطُرقِ ، وتشييد المراصِدِ الفلكية ، ولذلك قُتِل .

وصمَت « عمرُ الخيام » بُرْهَة ، ثم التـفَتَ إلى « عبدِ الرحمن » ، وقالَ له :

– افْعَلْ مثلَ فِعْلِى يا خَازِنِى . تفرّغْ لعِلمك ، فهو ما يَبْقَى من الأُمَم . تذكرْ أنّ صديقَنا « أبو الحسَنِ الطّوسِىّ » قد لُقِّب بلقبِ « نِظَامِ الملك » لِعظيمِ ما قدّمه للدوْلة ، لِكنْ ، ماذا قَدّمَه للعلم ؟ كتابُه « سياسَة نامه » وأماليه (رواياته) فى الحديث ، وبضعُ رسائل رياضيّة ؟ ! . وصَرَعتْه فى النّهاية ، عَداوَتُه للفِرَق المتطرِّفة ، وعلى يدِ صدِيقٍ قديم ، يخالِفه فى الرأْى .

وتفجّرت دمُوع الحُزْن من عينى « عمر الخيام » الشاعرِ الرقيقِ القلْب ، وَوَعَى « عبدُ الرحمن » نصيحةَ « الخيام » ، واتّخذ قرارَه بينَه وبين نفسِه ، قبلَ أن يغادِرَ مجلِسَه ، أن يكونَ عالِما فحسْب ، فالسياسة لها رجالها ، والعلمُ له أهله ، وزمانُ الوِئَام بينَ البشَر ، لم يحِنْ أوانُه بعْد .

اللجـوء للصحـراء

فى العَامِ الأوّل ، من القَرْن الهجرِىّ السادِس ، العَامِ السابعِ من القرْنِ الميلادِىّ الثانى عشَر ، شدّ « عبدُ الرحمن » رِحَالَه من « مَرْو » ، صَوبَ جِبالِ « سِنْجار » بالعِرَاق .

كان « عبدُ الرحمن » قد استأذن صديقَه السّلطان « مُعِزّ الدّين سَنْجَر » فى الرّحِيل ، ليتفرّغَ للعِلم ، فأذِنَ له ، وأخَذَ معَه كُتُباً من المراجعِ الأُمّهاتِ ، وآلات للرّصْد . وبعْضِ المساعِدِين من طُلّاب العِلْم الشّبّاب ، وأسْرَته الصّغِيرة العدَد ، وما زَوّدَه بِهِ صديقُه السّلطانُ من المال . وكانتْ قد مضَتْ على مَصْرَع « نظامِ المِلك » ثلاثُ سَنواتَ .

بالقُرْب من جبلَ « سِنْجار » ، كانت بلدةُ « سِنْجار » العراقية . كانت بلدةً تقعُ بينَ نهرِ « دجْلَة » ، ورافِدِ نهرِ « الخَابُور » ، المتفرِّعِ من نهرِ « الفُرَات » ، فى قَلْبِ صحرَاءِ « سِنْجار » . وكانتِ الصحراءُ شاسعةً ، تتناثَرُ فيها مُرتفعاتٌ شَاهِقَة الارْتفاع ، يصِلُ بعضُها إلى نحو ١٤٦٣ متراً ، فى الجبَلِ المعروفِ باسْمِ : « جَبلِ سنجار » .

وكانت « سِنْجَار » المدِينة ، تقعُ على طريقٍ برِّيٍّ للقوافِلِ ، على بعد ستّين كيلومتراً من « المَوْصِل » . كانَ الطريقُ يبدأ من « الموْصِل » ويمرّ ببلدة « تَلْعَفْر » ، ويستمِرّ إلى الحدُودِ السّورية ، ثم ينحرِف جنوباً إلى الغَرْب ، إلى أنْ ينتهِىَ عندَ بلدةِ « دَيْر الزُّور » فى سوريّة .

وبحثَ « عبدُ الرحمن » لنفسِه عنْ بَيتٍ يسكنُه . واختار بيتاً متواضِعا ، فى أطرافِ بلدةِ « سنجار » . وكانَ البيتُ قريباً من الجبَل . وعندَ هذَا البيتِ أنزل « عبدُ الرحمنِ » مع مرافِقيه أمتعتَه القلِيلة ، وصناديقَ كتبِه العديدَة . وكانَ « عبدُ الرحمن » قد قرّر أنْ يقضِىَ ما بقِىَ له من العُمرِ فى هذِه البلدةِ النائِيَة ، التى تحتضِنُها الصحراءُ والسماءُ والمرتفعات ، ويشرِف عليها جَبَل « سِنجار » العظيم ، بعيداً عن زحَام « مَرْو » ، وضجّة « مرو » ، وتَقَلُّباتِ السياسة ، وصِراعَاتِ الأُمراء ، على المناصِبِ ، والنفُوذِ ، والممتلكاتِ .

وأعطَى « عبدُ الرحمن » للحمّالين أجوراً سخيّة ، فانصرفُوا شاكِرين ، ليلحقُوا بالقافِلَةِ المسافرةِ إلى « دَيْر الزّور » .

طائر فريد

فى المسَاء ، عِنْد الغرُوب ، وقد استقرّ المُقَامُ بالجميع ، جلَس « عبدُ الرحمن » بين مساعِدِيه فى ساحَةِ بيْته ، ورَنا (نظر) إلى جَبَل « سِنْجَار » وقالَ لمسَاعدِيه :

— غداً ، فى الصّباح ، نحمِلُ آلاتِ الرّصْد ، ونقِيمُ مَرْصَدَنا عند منبسَطٍ ظليلٍ ، فى قمّةِ الجبل .

ومرَّ طائِرٌ فى فَضَاء « سِنْجَار » مُحوِّما فوقَ الجالِسين ، فابتسَم « عبدُ الرحمن » ، وقالَ لمن معَه :

— هذا هو طائرُ « سَنْجر » ، ولا يُوجد هذا الطائِرُ فى غيرِ « سِنْجار » من بلَادِ الأَرْض .

وصمتَ « عبدُ الرحمن » لحظةً ، ثم قَال :

— فى هذِه البلدة ، بلدة « سِنْجار » ، وُلِد صديقُنا السّلطان « مُعِزُّ الدّين سَنْجر » ، فسمّاه أبوه السُّلطان « مَلِكْشَاه » باسمِ هذَا الطّائِرِ الفَرِيد .

الـــكتاب الأول

ومرت السّنوات تِباعا ، تِسع سنـوات مضَت ، و « عبدُ الرحمن » يواصِلُ أرصادَه الفلكيّة بصبْر ودأْبٍ لا يفْتُرَان ، ويدوِّنُ مشاهداتِه واستنْتاجاتِه ، عن مواقعِ النجوم الثوابت ، والمطالِع المائلة ، والمعادَلات الزمنيّة لخطُوط العرْضِ فى مملكَةِ « سَنْجر » ويسجِّلها فى أزياج (جداوِلَ) فلكيّة ، أعْطَى فيها جداولَ السّطوحِ المائلةِ والصاعِدةِ ، ومعادَلاتٍ لتعيين الزمَن من خطوطِ عرضِ مدينة « مَرْو » .

وانتهَى « عبدُ الرحمن » من عملِه الفلكىّ الضخْم ، فى عامِ ١١١٥ الميلادية ، وعنْوَن جداوِله بعنُوان : « الزّيج المعتبَرُ السَّنْجَرِىّ » وقد لقِىَ هذا الزّيْج اهتِمَاماً من المسْتشرقين فى عصرِنا الحالِىّ ، وأفادَ منْه المستشرق الإيطالى « نِلِّينُو » ، فى كِتَابِه الشهير « تاريخ علم الفَلَك عِنْد العرب » ، واعتَمد عليه .

لكنّ هذا الزّيْج لم يكُنْ ، على أهميته ، العَمَل الخالِدَ الذى سُجِّلَ به اسمُ « الخَازِن » ، بحُروف من نُورٍ ، فى سجِلّ العلماءِ الخالِدين ، فى تاريخِ العُلوم عامة ، وفى تاريخِ العُلوم فى العصورِ



الوسطَى خَاصّة . فقد كانَ العملُ الخالِدُ لعبدِ الرحمن ، هو كتابُه الباقى ، فى علومِ الطبيعة : « ميزان الحكمة » .

معمـــل فى الجبـــل

إثْرَ انتهاءِ « عبدِ الرحمن » من جداوِله الفلكيّة ، أقامَ « عبدُ الرحمن » لنفسِه بالقُرْب من مرصَدِه ، معملاً صغيراً ،

وترَكَ المرصَدَ لمساعدِيه ليواصِلُوا أعمالَهم الفلكيّة ، فى « مرصَدِ سِنْجار » .

وابتكرَ « عبدُ الرحمن » فى معملِه أدواتٍ علمّية ، وأجهزَةً معملِيَةً ، تُعِينُه على البحْثِ وإجراءِ التجارِبِ فى علومِ الطبيعة ، وبينَها عُلُومٌ عُرِفَت ، بعدَ زمانه ، بعلُوم : الميكانيكا ، والهيدرُوستاتيكا (علم تَوازُنِ المَوائِع) والهوَائِيّات .

وفى هذا المعملِ الصغير ، بحَثَ « عبدُ الرحمن » فى مسائِلَ علمية طبيعيّة ، خاصَّةً بالأجْسَامِ الطافِيَةِ فى السّوائِلِ والهواءِ ، وفى كثافَةِ الموادِّ غيرِ العُضويّة فى الطبيعَةِ ، من الموادِّ الجامِدَةِ ، والسائِلَةِ ، والغازِيّةِ ، وفى الروَافِعِ ، ومراكِزِ الثِّقَلِ ، والموازِين .

الهواء مثل السوائل

كان « عبدُ الرحمن » قد عرَفَ ، من كتبِ الطبيعَةِ السابِقة ، قانونَ الطفْو فى السّوائِلِ الذى اكتشَفَه « أرشمِيدس » . واكتشَفَ عبدُ الرحمنِ من بعدِه ، وربّما لأوّلِ مرّة ، أن الهواءَ ، مثلَ السوائل ، لهُ قُوّةٌ رافِعةٌ ، وضَاغطة من

كُلِّ الجوانِب ، واكتشَفَ أنّ الهَوَاء له وَزْن ، وكثافَةٌ نوعِيّة ، ودرجةُ حرارة ، وبذلك أكّد « عبدُ الرحمن » أن قاعِدَة « أرشميدس » ، لا تَسْرِى (تنطَبِق) علَى السوائِلِ فحسْب ، ولكنّها تَسْرِى أيضاً على الهوَاء والغَازَات ، وبذلِك مَهّد « عبدُ الرحمن » السبِيلَ للعالِمِ الإيطالى « تورْشِيللى » لِيختَرِعَ « البارُومِتْر » لِقِيَاسِ الضَّغْط الجوّى ، فى القَرْنِ المِيلَادِىّ السابعِ عشَر ، فى مطالِعِ عصْرِ النّهضةِ الأُورُبّيِةِ الحديثَة .

ميزان فى الماء

واكتشَفَ « عبدُ الرحمن » أن وَزْنَ الجِسْمِ الموجود فى الهَوَاء ولا يلامسُ سطحَ الأرض ، ينقُص عن وزْنِه على سَطْحِ الأَرْض ، مثلَما ينقُصُ هذا الوزْن لجسمٍ مَغْمُورٍ فى الماء ، عن وزْنِه أيضاً وهو على سَطْحِ الأرْض . وبسبَبِ هذا الاكتِشَاف اخترعَ عبدُ الرحمن ، ولأولِ مرة ، ميزاناً لوزْنِ الأجسَام فى الهَواء ، وفى الماءِ ، وبصورةٍ تتعادَلُ مع نفسِ وزْنِها ، وهى فوق الأرض ، واخترَعَ أيضاً ميزاناً ذِى خمْس كِفّات ، تتحرّك إحداها على ذِرَاع مُدرَّج ، مثل ذِراعِ « مِيزَانِ القبّان » .

من الخازن .. إلى جاليليو

وأجْرَى « عبدُ الرحمن » ، فى معْمَله ، تجارِبَه على كثافةِ عددٍ من موادِّ الطبيعة ، وجَعَل من وحدةِ الماءِ فى السنتيمتر المربّع ، أساساً لها ، وهى الوحدةُ نفسُها للكثافة ، التى أقرّها من بعدِه كلُّ علماء الطبيعةِ فى القُرون التالية . ونَجَحَ « عبدُ الرحمن » فى تحديدِ الكثافةِ لاثنتينِ وعشرينَ مادّة ، من الأجسامِ الصُّلْبَةِ والسّائلةِ ، وبدقّة بالِغةٍ . يماثِلُ بعضُها ، ويقارِبُ بعضُها الآخر ، الكثافةَ التى حدّدَها لها ، فيما بعد ، علماءُ الطبيعة فى العصْرِ الحديث ، بأجهزتِهم العلميةِ الأكثر رُقيّا . وقدْ نُسبَت هذه القِيَمَ خطأ ، فيما نسب من أعمال « عبد الرحمن » ، إلى عَالِمِ البصرياتِ العربىّ : « ابن الهيثم » والتى أثمرت « جدْوَل العناصر » لمندليف . وقد اخترعَ « عبدُ الرحمن » لهذه الغاية نوعاً من « الايرُومتْرات » (مقاييسُ الكثافة) . وكان هذا الاختراعُ هو الخُطْوةُ الأُولى ، لقِياسِ درجَةِ الحرارةِ . فالكثافةُ يقومُ تحديدها أيضاً على درجَةِ الحرارَة . وبذلك مهّد « عبدُ الرحمن » السبيلَ أمامَ العالِمِ الإيطالىّ :

« جاليليو » لاختراعِ « الترّمُومِتر » فى القرْنِ الميلادِىّ السابعِ عشَر .

أســرار الهــواء

واكتشفَ « عبدُ الرحمن » ، فكرَةَ مُفرِّغَات الهواء ، والتى يمكن أنْ يترتّبَ عليها رفْعُ السوائِلِ من الأعماق ، وقد أدّى بحثُه هذا إلى اكتِشَاف المضخّات المستعمَلةِ الآن ، لرفْعِ المياه ، فى القُرَى والمدَن على السواء ، فى أرجَاء الأرْض .

واكتشَف « عبدُ الرحمن » أن كتلةَ الهواءِ حوْلَ الأرْض ، سبَبُها هو جَذْب الأرضِ لها ، وأن السِّر فى نقصِ الضّغْطِ الجوِّى للهَواء ، كلّما ارتفعْنَا عن سَطْح الأرْض ، هو نقصُ عمودُ الهَواء فى الجو تَدريجيا فوق سطح البحر . ونحنُ نعرِفُ الآن ، وبالعِلْم الحدِيث ، أن عُلُوّ كتْلةِ الغِلاف الجوّى ، المتراكِمَة فوقَ الأرْض ، تبلغُ حوالْى (١٠٠٠) كيلُو متر ، فوقَ سَطْحِ الأرض ، إلى قِمْةِ الجوّ .

واكتشَف « عبد الرحمن » مراكِزَ الثّقلِ فى الروافِع ،

وشَرَحَ بعضَ الآلاتِ البسيطة ، وكيفيّةَ عملِها ، مثلَ اتّزانِ الموازِين ، وروافِعِ المِيَاه ، وأدواتِ قياسِ الكثافةِ ، وسِوَاها .

ميزان الحكمة

كانَ « عبدُ الرحمن » ، يدوّن أوّلاً بأوّل ، ولسَبْع سَنوات ، ملاحظَاتِه ، وتجارِبَهُ المعمليّة ، ورُسُومه لآلاتِه ، ويكتُبُ عنْها الفصولَ تِلْو الفُصُول ، فى كِتابٍ ضَخْمٍ .

وانتهَى « عبدُ الرحمن » من كتَابه ، فى العَامِ الثّانى والعشْرِين ، من القرنِ الميلادِى الثّانِى عشر ، وعنْون كتابَه بعنوان : « مِيزانُ الحكمة » وتحتهُ كَتب كُنْيَته ، واسْمَه ، واسْمَ أبيهِ ، ولقَبَه : « أبو الفتح : عبد الرحمن المنصور الخازِن » ، وبهذَا اللّقَبِ اشتهر « عبدُ الرحْمن » فى زمَانه ، وبعْدَ زمَانِه .

وزارَه فى بيتِه صديقُه السّلطان « مُعِزّ الدّين سَنْجر » ، فقَدّم له « عبدُ الرحمن » نُسخَةً من كتابه « مِيزَانُ الحِكمَةِ » ، فسأله عن سبَبِ تسميته بهذَا الاسْم ، فقالَ له « عبدُ الرحمن » :

– الحكمةُ تعنى الفلسفة . والطبيعَةُ كلّها ، منذُ أرسطو ،

جزءٌ من الفلسفة ، والميزانُ يعنِى العدلَ والحقّ ، وكِلاهُما يرشِدُ إلى الحقيقَةِ ، فى الطبيعَةِ ، التى خَلق اللهُ نوامِيسَها (قوانِينَها) . ولذلِك أسميتُه : « مِيزَانُ الحِكْمَة » .

العالِم والنـــاس

كانَ « عبدُ الرحمن » قد جاوَز من العمرِ ، فيما نقدّره ، خمْسين سنَة ، حينَ انتشَرَت نُسَخُ « ميزانِ الحكمة » فى أرجَاءِ العالَمِ الإسْلَامِىّ ، فى المكتباتِ العامّةِ بالقصُورِ السُّلطانيّةِ والملكيّة ، وفى المكتَباتِ العامّة والخاصة ، وراجَتْ ، شرْقاً وغربا ، مُخترعَاتُ « عبد الرحمن » ، منَ الموازِينِ والروافِع ، فى الحياةِ العمليّة اليومِيةِ للناس ، فى البيُوت والمتَاجر ، والأسْواق والمزَارِع ، وربّما لم يعرَفْ أكثَرُ النّاسِ من العامّةِ اسمَ من قدّمَ لهم هذِه المخترعَات ، مثلمَا لا يعرِفُ أكثَرُ الناسِ ، من العامّة فى زمانِنَا ، أسماءَ المخترِعين فى العصْرِ الحديث ، لآلافِ المخترعَات ، التى يتمتّع بها ملايِين البشَرَ .

الـكتاب الضائع

وقُدّر لكتابِ « ميزانُ الحكمة » ، أن يواجِهَ المصيرَ المحزنَ الدامِى ، مع مئَاتِ الآلاف من الكتُبِ العربيّة والإسْلامِيّة ، التى ضاعَتْ وفُقِدَت بالحرْقِ والغَرَق والتمزيق ، فى العواصِف السياسِيّة والحربيّةِ ، والتى هبَّت على العالَمِ الإسْلامى ، بالغارَاتِ البربريةِ ، شرقاً فى آسْيا على يد التّتار والمغُول ، وغرباً فى الأندلُس على يدِ الفرِنجة .

وقد ذكرَ « البيهقى » المؤرّخُ الفارِسى ، الذِى عاشَ إلى منتصَف القرْنِ الميلادِى الثانِى عشر ، فى دائرته الموسُوعِيّة « تاريخُ حُكَماءِ الإسْلام » ، أنه هُو الذى كشَف عن الكتَابِ الضائِعِ المجهولِ : « ميزان الحكمة » ، وساقَ فى دائرته الموسوعِيّة هذه ، أوّل ترجَمةٍ لحياةِ « عبد الرحمن الخازِن » .

لكن هذَا الكتاب ظلّ ، مع ذلك ، فى عِدَادَ الكُتُب المفقودَةِ ، فى الموسُوعَات والفهارِسِ القديمة ، إلى أن اكتُشِفَت نُسْخَةٌ من هذَا الكتَابِ ، فى الهِند ، فى منتصَفِ القرْنِ الميلادِىّ التاسِعِ عشر ، فعُثِر بذلِك على أجلِّ (أعظم وأفضل) كتابٍ



فى علومِ الطبيعة ، أنتجَتْه القرِيحةُ (العقل) فى العُصُور الوسطى .

●

فى الهِند ، طُبِعَ كِتاب « ميزانُ الحكمة » لأوّل مرة ، فعدّه مؤرخو العِلم ، وعلماءُ الطبيعةِ ، والمسْتشرقونَ ، الكتَابَ الأوّل ، المؤلّف فى ظِلِّ الحضارةِ الإسْلامية ، فى عُلومِ الطبيعة عامّة ، وفى عُلومِ : « الهِيدرُوستَاتيكا » و « الميكانيكا » ، و « الهواء » ، بصفَة خاصّة .

وفى أُوربا نشَرَ العالم الرياضى « سيتر » الهولندى ، عامَ ١٨٥٩ جزءًا كبيراً من كتابِ « ميزان الحكمة » .

وفى القرْنِ العشرين ، كتَب المستشرق الفرنسى « فيدْمان » ، عن الخازن وكتابه « ميزان الحكمة » ، فى دائرةِ المعارفِ الإسلامية . ونُشِرَت فى أوربا أجزاءٌ أخْرى من هذا الكتاب ، فى أعوامِ ١٩٠٨ و ١٩١٠ و ١٩١١ ، ونُوقِشَت الأجزاءُ المنشورَة ، من هذا الكتاب ، سنةَ ١٩١٤ . ونشرَتِ المجلةُ الشرقيّة الأمريكيّة ، عدداً من الفُصُول المترجَمة عن كتَابِ

« ميزان الحكمة » للخازِن ، فى عدَدِها الخامِسِ والثمانِين .

وفى بيروت طُبِع كتابُ « ميزانُ الحكمة » كاملاً ، فى عشْرَة أجْزاء ، ونشرَه وحقّقه ، وكتَب له مقدمةً : « فؤاد جميعَان » .

●

لا يَعرِف أحدٌ على وجهِ التحدِيد ، أو علَى وجْهِ التقرِيب ، متى وُلِد « أبو الفتح عبدُ الرحمن المنصورُ الخازِنِىّ » ، ولا متى كانَ ودَاعُه للدّنيا ، ولا فِى أىِّ بلد كانَ مثْواه ، حتّى كتّابُ السِّيَرِ والتّراجِم لحياة الأفذاذ لا يعرفُون ، وربّما لأنّه عاش سنوات حياتِه الأخيرة ، شدِيدَ البساطةِ والتواضُعِ ، يُؤْثِرُ العلم والعملَ على المالِ والجاهِ ، ويؤثِرُ الحياةَ فى جَبَل بينَ غِمار (عامةِ الناس) وسوَادِهم ، وربما لأنّ الحوادِث البشرِيّة المتسارِعَة من غارَاتِ التّتر والمغُول ، وغارَات الفرنجَةِ ، على العالمِ الإسلامى فى القرنِ الميلادِىّ الثانِى عشر ، آثرَتْه أكثرَ من سِوَاه ، وآثَرت كتابه « ميزانَ الحكمة » خاصةً ، مثلما آثرت ذكرَاه ، بالضّيَاع والنِّسيان ، سبعَةَ قُرونٍ من الزّمان ؛ بل ونَسَبَت بعضَ أعمالِه

إلى سِوَاه ، لكنّ رحمَةَ اللهِ تداركتْ ذلكَ الكِتَاب ، وتلْكَ الذِّكْرَى ، فصارَ عالِماً فذًّا ، ملءَ السّمْعِ والبصَر ، رفعته بيْنَ علماءِ القرْنِ الميلادِىّ الثّانِى عشَر العِظَام ، ورفعَتْه ذكْرَاه بين العُلماءِ الخالدين .

رقم الايداع
٨٠٠٦/ ١٩٩٠

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر

علماء العرب

١٦

الخـــازن

عالم طبيعة طواه النسيان ، عاش فى القرن الميلادى الثانى عشر، ألف أهم كتاب فى الطبيعة فى عشرة أجزاء، واكتشف كثيراً من حقائق العلم عن الهواء والسوائل والموازين والروافع ومراكز الثقل ومفرغات الهواء والكثافة النوعية و الضغط الجوى والجاذبية الأرضية.

واخترع ميزان القبان وميزاناً لوزن الأجسام فى الماء والهواء . ومهّد السبيل لاختراع "جاليليو" لمقياس الحرارة ، و"توريشيللى" لمقياس الضغط الجوى، فكان أعظم عالم طبيعة فى زمانه. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة :

١ - ابن النفيس
٢ - ابن الهيثم
٣ - البيرونى
٤ - جابر بن حيّان
٥ - ابن البيطار
٦ - ابن بطوطة
٧ - ابن سينا
٨ - الفارابى
٩ - الخوارزمى
١٠ - الإدريسى
١١ - الدميرى
١٢ - ابن رشد
١٣ - ابن ماجد
١٤ - القزوينى
١٥ - ابن يونس
١٦ - الخازن

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر